بغداد

في عيون الشعراء

بحث لـ :

د . أنوار سعيد جواد

م. م جواد عودة سبهان

بغداد

في عيون شعراء العراق

بَغدادُ ... ما اُشْتَبَكَتْ عليكِ الأعصُرُ إلاّ ذَوَتْ ... وَوَرِيقُ عُمرِكِ أخضرُ(١)

عرف تراث الانسانية الكثير من الحضارات والامم على مدى التاريخ الطويل ، غير ان القليل من هذه الحضارات استطاعت الصمود والخلود والى يومنا هذا وما بعده الى ان يرث الله الارض ومن عليها. ومن هذه الحضارات أو الامم التي تمثلت باسم مدينة عرفها التاريخ وعرفتها الاجيال (بغداد) أُمُّ الدنيا وسيدة البلاد(٢) كما وصفها ياقوت في معجمه. ذلك انها استطاعت وبما امتلكته من مقومات الحياة أن تبقى محط انظار القاصي والداني . فكثرت من أجل ذلك المؤلفات عنها وعن بنائها وعن تاريخها وعادات اهلها الاجتماعية وما يتعلق بغريبها وطريفها على مدى تاريخها الطويل(٣) ولو استعرضنا ما قيل فيها لطال بنا المقام ولاحتجنا الكثير الكثير من الوقت. لكننا نحاول في هذا البحث ان نقف عند أقوال بعض الشعراء العراقيين لنتعرف من خلالها على رؤيتهم لهذه المدينة وموقفهم منها وما تثيره فيهم من مشاعر واحاسيس مختلفة تجاهها ومتباينة من حيث الشوق والحنين اليها ، والرغبة في العيش بها وبين عتاب ،ويأس وهجاء وغزل وحتى رثاء لها ،هذا الى جانب استذكارهم لتاريخها ومجدها فضلا عمّا تتعرض له هذه المدينة من محاولات لاضعافها ولاخراجها عن موقعها في نفوس العراقيين.

والقارئ في تراثنا الشعري العربي . والعراقي على وجه الخصوص . وديوانه يجد ان معظم الشعراء يتعرضون لذكر هذه المدينة الخالدة سواء أكانوا من سكانها أم من الوافدين إليها وسنحاول في هذا البحث أن نقف عند شعر بعض هؤلاء الشعراء العراقيين لنرى بغداد من خلال أعينهم بما تفصح عنه أشعارهم وأقوالهم ونتعرف من خلالها على رؤيتهم لهذه المدينة أو هذا العنوان (بغداد) :

- بغداد المكان

تعد مسألة بغداد وتوظيف الشعراء للمدن من المسائل الشعرية التي وقف عندها الشعراء غير ان وقفتهم تختلف عن وقفة غيرهم من الفنانين لاسيما اولئك الذين يصورونها أو ينظرون إليها كونها مكاناً من

---

(١) : ديوان مصطفى جمال الدين . بيروت : دار المؤرخ العربي ١٤١٥- ١٩٩٥م ص١٠٥.

(٢) : معجم البلدان / للشيخ الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. بيروت: دار صادر ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م. المجلد الاول باب الباء والغين وما يليهما.

(٣) : نذكر على سبيل المثال لا الحصر : تاريخ مدينة السلام واخبار محدثيها وذكر قُطَّانِها العلماء من غير اهلها ووارديها / تأليف الامام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ٣٩٢- ٤٦٣هـ ، حققه وضبط نصه ، وعَلَّق عليه الدكتور بشار عواد معروف. بيروت : دار الغرب الاسلامي ، ط١ : ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م في (١٧) جزءا. بغداديات تصوير للحياة الاجتماعية والعادات البغدادية خلال مائة عام / تأليف عزيز جاسم الحجية. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. ط١ (٧) أجزاء ،بغداد بعض الغريب والطريف من ماضيها الظريف / أحمد الجزراوي ؛ مراجعة وتقديم عبد الرزاق بيمار. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. ط١: ٢٠٠٥.

خلال كاميراتهم فالشعراء ينظرون إلى بغداد كونها رمزاً مكانيا مستعينين بما يفيض عليهم خيالهم الغني في رسم صورة هذا المكان بما يحويه من تضاريس جغرافية لاسيما ماؤه وأرضه.

فهذا الشاعر أبو نواس (١٩٦هـ) القادم من البصرة ما ان يدخل بغداد حتى ينسى مَنْ كان يصفيهم الوَّد ومَنْ كان يرعاهم ويحبهم. بل اكثر من ذلك فهو لم يعد يرعَ لهم عهداً كما في السابق ويطلب منهم المقابلة بالمثل ، كما يدعوهم الى عدم الشكوى من فقدهم مثلما فعل فما عاد يشكو لهم فقدا لانه شرب ماء بغداد ؛ وفي ذلك يقول :

أيا من كنتُ بالبَصْر　　　ةِ أُصْفِي لهُم الودَّا
وَمَنْ كانوا موالىَّ　　　وَمَنْ كنتُ لهم عَبْدا
وَمَنْ كنتُ أرعَاهُ　　　وإنْ مَلَّ وإنْ صدَّا
شربْنَا ماءَ بَغْدادٍ　　　فأنساناكمُ جدًّا
فلا تَرْعُوا لنَا عهْداً　　　فما نَرْعى لكم عَهْدا
ولا تشكُوا لَنَا فَقْدا　　　فما نشكو لكم فَقْدا(١)

وفي موضع آخر نراه يدعو بالسُقيا لـ(بغداد) وأَيامها لانها استطاعت ان تلبي حاجة هذا الشاعر فقد وجد في هذه المدينة ضالته فراح يدعو لها ، بمثل قوله :-

سقياً لبغدادَ ، وأيّامها　　　إذْ دَهْرنا نطويه بالقَصْفِ
مع فتيةٍ مِثْل نجومِ الدُّجَى　　　لم يُطْبَعُوا يوماً على خَسْفِ
تيجانُهم حِلْمَ إذ ما سُقُوا　　　قد فُصِّصَتْ بالجود والظَّرْفِ(٢)

كيف لا يدعو لها وهي دار ملذات الشاعر(٣) ودار غزله(٤) ولهوه(٥) ومجونه وفيها يقول :-

وأَخْلَعْ عذارَكَ ، لا تَأتي بصاعةِ　　　ما دُمْتَ مُسْتَوطِناً أكْنافَ بَغْدَادِ(١)

---

(١) : ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ ولد سنة ١٣٦هـ وقيل ١٤٠هـ وتوفي سنة ١٩٥هـ وقيل ١٩٦هـ وقيل ١٩٧هـ ؛ حققه وضبطه وشرحه احمد عبد المجيد الغزالي. بيروت : دار الكتاب العربي ١٤٠٤- ١٩٨٤م. ص٥٤٧.

(٢) : ديوانه / ٦٩١.

(٣) : ديوانه /١٦٧.

(٤) : ديوانه / ٣٠٧.

(٥) : ديوانه / ٢٢٦.

(١) : ديوان أبي نواس / ٦٨٥. أكناف بغداد : جوانبها.

حتى انه ذهب الى وصف مجالس الخمر فيها واماكنها في بغداد ، وكذلك فعل صاحبه مطيع ابن اياس القادم من الكوفة عندما وصف مجلس خمر وغناء ببغداد(٢) اما الشاعر منصور النمري فقد كانت بغداد عنده اعجوبة الدنيا والدين بريحها وليلها واغرائها حيث يقول :

ماذا ببغداد من طيبٍ أفانين   ومن عجائب للدنيا والدينِ
إذا الصِّبا نفحتْ والليل مُعتكر   فحرَّشت بين أغصان الرياحينِ(٣)

أما الشاعر ابن الرومي فنجد له قصيدة تقع في حدود (٥٢) بيتا يتشوق فيها الى بغداد بعد احساس مرير بالغربة ، ومطلع القصيدة :

رقت وما ليلُ الغريب براقد   وما راقدٌ لم يَرْعَ نجماً كساهدِ(٤)

وعلى عكس هذه الصورة (لبغداد) فقد نجد من الشعراء مَنْ يذهب الى هجاء هذه المدينة التي اخفقت فيما يبدو في تحقيق أماني الشاعر ورغباته ، فما أن تتعرض هذه المدينة لثورة أو لحادثة حتى يذهب البعض الى التعريض بها وكأنها هي المسؤولة عمّا يفعل سكانها لاسيما الطبقة الحاكمة فيها ، فهذا اسحاق بن حسان الخزيمي يقول في بغداد بعد مقتل البرامكة :-

يا بُؤْسَ بَغْدَادَ دارِ مَمْلَكَةٍ   دَارَتْ عَلَى أهْلِها دَوائِرُها
أَمْهَلَها الله ثُمَّ عَاقَبَها   لَمَّا أَحاطَتْ بها كَبَائِرُها
رَقَّ بِها الدّينُ واُسْتُخِفَّ بذي الـفَضْل وَعَزَّ الرِجالَ فاجِرُها
والكَرْخُ أسْوَاقُها مُعَطَّلَةٌ   يَسْتَنُ شُذَّابُها وعامِرُها(٥)

ولو ذهبنا الى استقصاء القصائد التي قيلت في بغداد كونها مكانا لطال بنا المقام ، لكننا سنحاول في هذا البحث ان نقف عند رؤية الشعراء لمدينة بغداد .

---

(٢) : يُنظر شعراء عباسيون / غوستاف فون غرنباوم ، ترجمها واعاد تحقيقها الدكتور محمد يوسف نجم ، راجعها الدكتور احسان عباس ، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٥٩م . ص٣٧.

(٣) : طبقات الشعراء / لابن المعتز ؛ تحقيق عبد الستار أحمد فراج. مصر : دار المعارف ط٤. ص٢٤٦.

(٤) : ديوان ابن الرومي ابي الحسن علي بن العباس بن جريج ؛ تحقيق د. حسين نصار ، مطبعة دار الكتب العلمية ١٩٧٤. ج ٢ ص٧٨٩.

(٥) : الشعر والشعراء / ابن قتيبة ؛ مطبعة بريل ، ليدن المحروسة ١٩٠٢. ص٥٤٣-٥٤٤. ومثل ذلك ايضا ما نجده في شعر الطغرائي ت (٥١٥هـ) عندما قال قصيدة في ذم بغداد وأهلها ويتشوق الى اصفهان ديوان الطغرائي أبي اسماعيل الحسين بن علي المتوفى سنة ٥١٥هـ ؛ تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري الجمهورية العراقية – منشورات وزارة الاعلام ١٩٧٦م. ص٦٦-٧٣ و ص٣٠١-٣٠٩ في قصيدة اللامية المشهورة التي مطلعها:-

أصالة الرأي صانتني عن الخَطلِ   وَحليةُ الفضل زانتني لدَى العَطَلِ

- بغداد التاريخ والحضارة :-

ما ان نمضي قدما من الزمان حتى نلحظ ان ذلك المكان قد أخذ بُعدا آخر إذ تحول من مجرد مكان مادي يلمس فيه الشاعر الراحة والسرور واللذة أو عكس ذلك فهو مكان للشقاء ولممارسة الكبائر والمعاصي ، الى موطن أو زمان يُستنشق منه عبير الحضارة والامجاد ، فتتحول بغداد المكان الى بغداد التاريخ المشرق والحضارة والامجاد ، لتكون عنواناً لهما ، فنرى الشعراء ولاسيما المحدثين يتحدثون عن امجاد هذه المدينة وعن اثرها في البلدان الاخرى ، ودورها في توحيد كلمة العرب ، فبغداد عنوان سلام ومنها يضوع كما ذكا للورد نشر – كما يقول الشاعر محمد مهدي الجواهري-

على بغدادَ ما بَقيتْ سَلامٌ   يَضوعُ كما ذَكا للوَردِ نشرُ(١)

وهي أيضاً دار السلام ودارة المجد ، فبغداد هي التاريخ على الرغم من تعدد أوجهه واشطره بين الخير والشر ، وهذا ما نلحظه في خطاب الشاعر لها :-

يا دارة المجد ودار السلام   بغدادُ يا عقداً فريد النظام
بغداد والتاريخ ذو أشطر   وشرُّ شطريه عهودُ الجمام(٢)

بل هي يد الدنيا التي تطول وتقصر :-

ويكادُ يُجهلُ أن بغداداً بها   كانتْ يد الدنيا التي تطول وتقصر(٣)

حتى غدا المجد فيها قينة تلهو وعوداً يستحثُ الضاربا :-

بغدادُ كان المجدُ عندك قينة   تلهو ، وعوداً يستحثُ الضاربا(٤)

كيف لا ؟! وهي قلب العراق وضميره الواعي الذي لا تزعزه رياح الاعادي مهما مرت عليه من محن ونوائب وما يحمله الغزاة عليها من اطماع. الاّ انها تقف صامدة قوية في وجوههم فهي مقبرة الغزاة ولحدهم على مر التاريخ :-

بغداد يا درْبَ الغزاة ولَحْدَهُم   ما إن لهم بعد الغُدّو رواحُ
بغداد يا قلبَ العراقِ ووعيهُ   وضميرَهُ لا زعْزَعتكِ رياحُ(١)

---

(١) : ديوان الجواهري ، محمد مهدي الجواهري ، لجنة في وزارة الاعلام ؛ بغداد : دار الحرية للطباعة والنشر الطبعة الثانية : ٢٠٠٨ ، الجزء الاول : ص١٧٥.

(٢) : ديوان الجواهري / ج ٧ : ١١١٥.

(٣) : ديوان الجواهري ج ٤ / ٥٨٦.

(٤) : ديوان الجواهري ج٣ / ٥٦٤.

(١) : ديوان الجواهري ج ٤ / ٧١٢.

هذا الى جانب مشاركتها اخواتها الدول العربية الاخرى في نضال شعوبها ضد الطغاة والمستعربين لشعورها برابطة الرحم الموصولة اوشاجها على الرغم من محاولات الاعداء تقطيع هذه الاواصر :-

سأعفي بغداد أنضاء الوغى   من بني العَمّ وراء الكِرْمِلِ
رَحِمٌ موصولةٌ أوشاجها   لم يقطّعها كِيادُ الدُّولِ(٢)

وقد لمس الشعراء هذا الاحساس بالعروبة لدى بغداد ، فذهبوا يشيرون الى ذلك في قصائدهم ومنهم الشاعر محمد بهجة الاثري حيث يقول :-

لمستُ في نداء بغداد حِسّاً   يعربيا فأوسعتُه قبولا
تلك بغدادُ في ذراها ، ونجد   وبلاد الشام عرضا وطولا(٣)

وفي موضع آخر يشير الشاعر الى هذه العلاقة الحميمة التي تربط بغداد مع عواصم الدول الاخرى مشبها تلك العلاقة والوحدة بينها وكأنها عِناق الاحباب بعضهم لبعض:-

عانقت جلّق بغداد الرشيد   ورعت مصرَ صقور المغربِ(٤)

وفي موضع ثالث يشبه علاقة بغداد بمصر كأنها علاقة المحب الهيمان وما يشعر به من الاشواق

ما بـ(بغداد) في هوى (مصر) إلاّ   لـهفاتُ الاشواق والـهيمانِ(٥)

بل انه يذهب الى ابعد من ذلك عندما يطلب من الاخرين الوقوف على معالم هذه الحضارات مستنطقا اياها عن تاريخها ومجدها :-

قِفِ بـ(بغداد) و(الشام) و(غرنا   طة) مستنطقا بقايا المعالم(٦)

(فبغداد) هي قطب الرحى ،وهي مركز العواصم الاخرى ، ما ان يحدث فيها حادث إلاّ وتأثرت بها العواصم والبلدان العربية الاخرى ، وهذا ما ذكره الشاعر محمد بهجة الاثري في قوله :-

إذا جاشَ في بغداد للشَّر مرجِلٌ   تجيشُ بـ(مصْر) و(الشام) مراجِلُ(١)

---

(٢) : ديوان الاثري (محمد بهجة الاثري) / د. عدنان الخطيب. بغداد: مطبوعات المجمع العلمي العراقي ،ط١: ١٩٩٠م ص انضاء :مجهدون ، الوغى : الحرب ، الكرمل : حصن على الجبل المشرف على حيفا ويُطلق الآن على الجبل نفسه.

(٣) : ديوانه / ٣٠ ، ٣٣٦.

(٤) : ديوان الاثري / ٢٧٣. جلق : دمشق

(٥) : ديوان الاثري / ١٢٦.

(٦) : ديوان الاثري / ٩٥.

(١) : ديوان الاثري / ١٩٧.

مشيرا بذلك الى الوحدة التلاحمية التي تربط اقطار المنطقة العربية ، فما أن تتعرض دولة الى خطر حتى يتطاير ذلك الخطر الى المناطق الاخرى ، حتى كأنها منطقة واحدة او بشكل ادق جسد واحد يؤثر ويتأثر بما يحيط به .

غير ان لبغداد –فيما يبدو- خصوصية تميزها عن غيرها من البلدان الاخرى ، فاذا تحركت بغداد تحركت باقي اقطار الدول العربية الاخرى ، وما ان يبعث مجد بغداد حتى يُبعث مجد أُمة بها الكون يزهى والحضارات تعجب ، حتى كأن بغداد ارتدت ثوب الحضارة وسحبت المجد في اذيالها تيها:-

أعدْ مجد بغداد ومجدك أغلبُ وَجَدِّدْ لها عهداً وعهدكَ أطيبُ
كأن على بغداد مما أفضته من المجد أذيالاً من التيه تُسحَبُ
أعدْ مجدَ بغداد تُعدْ مجد أُمة به الكونُ يزهى والحضارات تخصبُ
هنا انسابت الدنيا وراحت عصارة من الفكر في كأس من الضاد تشربُ
أعدْ مجد بغداد فبغداد روضةً لدى موسم تذوي وآخر تَعْشبُ(٢)

وهذا إن دلَّ على شيء فانما يدل على مكانة بغداد وتجذرها في تاريخ الحضارة العربية حتى اصبحت عنوانا لها.

والى جانب هذه الصورة الرائعة التي رسمها الشاعر لبغداد ، نجد صورة اخرى لا تقل ابداعاً وجمالا يرسم من خلالها الشاعر دور بغداد واثرها القوي في جعل الشعراء يتغنون بها حيث يقول احد الشعراء المحدثين :-

بسمت لـ(بغداد) ، و(بغدادُ) ثاكلة فلمْ تَر الاّ أن تهشَّ مُجامله
و(بغداد) ثغرٌ صاغه (الله) باسماً لكلِ أديبٍ ، حطَّ فيها رَواحله(٣)

فقد اضاف الشاعر للصورة روحاً جديدة حين أنسن بغداد ، وخلع عليها المشاعر رغبة منه في انطاقها ، وهذا ما نلحظه في ثنائيته (باسمة ، ثاكلة) ، وكذلك في البيت الثاني عندما جعل منها ثغرا باسما يقف عنده كل أديب حاطاً فيه رواحله التي هي في الحقيقة اشعاره ، في اشارة منه الى مكانة بغداد واثرها في نفس كل أديب وشاعر وانسان وفي موضع ثالث نجد ان بغداد التي كانت ثغرا باسماً تحولت الى انسان له

---

(٢) : ديوان الجواهري / ج٥ : ص٧٤٩-٧٥٠.
(٣) : ديوان الاثري / ٣٦٣.

القدرة على الفعل وعلى الوفاء بالعهد الذي يقطعه على نفسه في اشارة الى دور بغداد في الوفاء بالوعود وبصدق الفعال ، والالتزام بالعهود حيث يقول احد شعرائها :-

هاكم من يَدٍ لـ(بغدادَ) عهداً   يصدُقُ الفعلُ عنده والوفاءُ(١)

فقد خلق الشعراء صوراً شعرية جميلة وذلك من خلال اضفاء صفات العاقل على غير العاقل كما في هذه الصور السابقة

ولا يمكن للباحث ان يمرَّ من دون الاشارة الى او الوقوف على قصيدتين تعدان من القصائد الرائعة التي قيلت في بغداد وامجادها مستذكرين عصورها التاريخية التي مرت بها ، ولحظاتها التاريخية الصعبة التي رافقت مسيرتها الطويلة الاّ انها وعلى الرغم من ذلك ما زال وريق عمرها أخضر ، وصباحها مشمسٌ وليلها مقمر ، القصيدة الاولى للشاعر مصطفى جمال الدين بعنوان (بغداد) قالها في العيد الألفي لهذه المدينة الخالدة ومطلعها :-

بغدادُ ما اشتبكت عليكِ الاعصرُ   الاّ ذَوَتْ .. وَوَرِيقُ عُمرِكِ أخضرُ
مرت بكِ الدنيا ، وصُبحُكِ مِشمِس   وَدَجتْ عليكِ وَوَجه لَيلِكِ مُقّمِرُ
وَقَستْ عليكِ الحادثاتُ ، فَراغَها   أن احتمالك ، مِن أذاها أكبرُ(٢)

حيث تقع القصيدة في حوالي (٨٢) بيتا ، تحدث فيها الشاعرعن بناة بغداد من المفكرين والادباء والشعراء وحتى الفلاسفة ولا سيما الفيلسوف العربي أبي يوسف الكندي ، حيث يقول في ختامها :

اليوم (للكنديّ) قلبُكِ حافلُ   ويداكِ حاضنةٌ ، وعقلُكِ مُكبِرُ
وغدا سيلقاك (الرضيُّ) وصحبُهُ   في موكبٍ جَمّ السنى يتبختَرُ
وأنا الزعيم بأنَّ قَلبكِ في غدٍ   أندى ، واحفل بالوفاء وأطهر
وَبأنَّ يومَكِ وهو عِيْدُ مروءة   سيُعيض عن غدر الهوى ويُكفّرُ(٣)

وكأنه بذلك يستعرض العصر الذهبي لهذه المدينة العريقة سواء أكان في الحكم أو السياسة أم العلم والادب والفن ، وهو في قصيدته إنما يحاول ان يذكِّر الاجيال بمن اسهم في بنائها من قائد ومعلم وشاعر

---

(١) : ديوان الاثري / ١٣٥.
(٢) : ديوان مصطفى جمال الدين : ١٠٥- ١١٥.
(٣) : ديوانه / ١١٥.

وفنان ومهندس وفيلسوف وغير هؤلاء ممن لم يحفظ لنا التاريخ اسماءهم وادوارهم في بناء هذه الحاضرة. في حين اقتصر التاريخ على اسم الخليفة او الوزير او القائد والامير.

اما القصيدة الثانية فهي للشاعر العراقي احمد الوائلي يتحدث فيها عن تاريخ بغداد ومجدها وشموخها الذي يبقى عصيّاً على الحكام والساسة الذين حاولوا إضعافها وإذلالها إلاّ أن خدَّها الجبار أبى ان يُسحق تحت وطأتهم ، وما زالت كنوز الفكر عندها منهجا للابداع ومنطلقا لكل حرّ يأبى الهوان والذل على الرغم من كل المحاولات لتجفيف منابع الفكر وتصحير روضها الزاهر حيث يقول مكرراً بغداد منادياً ومخاطبا ومتسائلا في كل مقطع من مقاطع القصيدة التي يبلغ عدد أبياتها (٨٢) بيتا:-

بغدادُ جفَّ الربيعُ الطلق واحترقا   وصوّح الروض لا زهراً ولا عبقا
بغداد يا بنت كلِّ الرافدين بما   جادا وما أنقا منها وما خلقا
بغدادُ أين طيوف الامس مترعة   مجداً وتيه فتوحاتٍ وما نسقا
بغدادُ أين سرايانا يرفُّ لها   نجم ويعشب إذ تجتاز رمل نقا
بغداد أين كنوز الفكر نمنحها   للفكر نهجا وللابداع منطلقا(١)

ونلحظ في أبياتها كيف ان الشاعر استطاع ان يوظف الاحداث التاريخية التي مرت بها هذه المدينة الخالدة وربطها بالحاضر ، وكيف تحولت تلك المدينة الشامخة بخصب حضاراتها وامجادها الى ارض يابسة قاحلة ، وما ذلك الاّ لهجرة أهلها ومحبيها عنها بعد أن اصبحت دار ذل وهوان بسبب حكامها وهذا ما يشير اليه المقطع الاول من القصيدة:-

بغدادُ جفَّ الربيعُ الطلق واحترقا   وصوّح الروض لا زهراً ولا عبقا
كل اخضلال العصور الخضر حوَّلـه   يبساً هجيرٌ لئيم ألهب الافقا
وعادت الشمس عميا والصباح بها   خابٍ ولمع السنا لا يبهر الحدقا
الرَّوض ما فيه لا نجم ولا شجرٍ   والغيث أخلف لا طلاً ولا ودقا
عاد الخميل الذي غاب وصار بـه   من الذئاب عوى يبعث الفَرَقا
وقد تخال بأنَّ الخصب في شجرٍ   وروضة وخميلٍ رفَّ وائتلقا
أعيذ فهمك أنَّ الخصب موطنه   في الردح ان جاز حدّ الاسر وانطلقا

---

(١) : ديوان الوائلي . شرح / سمير شيخ الارض ط١ : ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م لبناء مؤسسة البلاغ ص ١٧٨- ١٨٢.

أما النفوس اللواتي الذل يطعمها   خبزاً ويخبطها سوط إذا انطلقا
فأين منها ربيعٌ وهي في سقر   ما في جهَّنم روض رفَّ أو بسقا[١]

فبغداد في عين الشاعر ليست مجرد مكان ، وإنما تحولت عنده إلى رمز شعري وظفه الشاعر في التعبير عن معاناته ، لذا نجده في أبيات القصيدة التالية يطالب بغداد بالتغني بماضيها المجيد وذلك من خلال بثها لاترابها ما تعانيه من واقعها الأليم ؛ وكأنه بذلك يحاول أن يجعل من بغداد لسانا ناطقا تتحدث من خلاله عن تاريخها المجيد ، ومتسائلا في الوقت ذاته عن هذا المجد وهذا التاريخ كيف أصبح بيد الساسة والحكام سواء الذين أساءوا في حكمها أو مَنْ ارتفع وارتقى فيه :

بغداد ساسك حكام وغاشية   من سفَّ في حكمه وَمَنْ سَمقا
ممن أرادك للافكارِ منتجعا   ومَنْ أرادك يا بغداد مرتزقا
وَمَنْ جلاك عروسا يستدّ بها   وَمَنْ نضاك الحسام العضب وامتشقا[٢]

وهكذا يستمر الشاعر في الحديث عن بغداد وماضيها التليد مستذكرا أبي نواس وصوته واسحاق الموصلي وغنائه ؛ وغير ذلك من الرموز التي تعبق بها بغداد ، في الوقت ذاته يستذكر حكامها الطغاة الذين أذاقوا شعبها الهموم والأحزان بما استحلوه من دماء شعبها حتى غرقت ايديهم به[٣] ومؤكدا في الوقت ذاته ان دولة الظلم هذه لن تدوم كما لم تدم سابقتها على مر الدهور والأيام وذلك بفضل تضحيات الشعوب وكفاحهم ، ليعود لبغداد وجهها المشرق وخدها الجبار الذي يأبى الذل والهوان حتى وان سُحقا :

بغداد تاريخك الماضي يحدثنا   بأَنَّ خدَّكِ جبار وإن سُحِقا
وأَنَّكِ الصِّلّ يخشى الوثب منه   أراح فوق التراب الخدَّ والتصقا
ثوري لِعَنْتٍ فماذا بعد مغتصبٍ   أتاك يهدر فيك البضع والعنقا
فأنتِ ظهر جوادٍ يمتطى لوغى   لا ظهر برذون يرضى مَنْ عليه رقا
واستهدفي زيف أوراقٍ يزوِّرها   من خلفها فتظني الكذب قد صدقا
أكبرت وعيكِ عن زيفٍ يخادعه   حتى ولو كان زيفا بارعا لبقا

---

[١] : ديوان الوائلي / ١٧٨. وصوح : يبس حتى تشقق ، الطل : المطر الخفيف ، الوَدَق : المطر عموماً ، عوى : العواء ، الفرقا : الخوف والفزع ، الردح : الاقامة ، جاز : جاوز ، سقر : اسم من اسماء النار او جهنم.

[٢] ديوانه / ١٨٠ . الغاشية : الداهية ، سَفَّ : تدنى وأساء ،سمَقَ : ارتقى وارتفع ، الحسام العضب : القاطع ، امتشقه : استله ليقاتل .

[٣] م . ن / ١٨١.

ألم تكوني مهاداً للشموس فما   أغرى بكِ الليل حتى أحكم الغسقا؟!(١)

ولا يخفى ما لتكرار لفظة (بغداد) من ايقاع موسيقي مؤثر ؛ فضلا عن البعد النفسي الذي يحاول الشاعر أن يرسله إلى المتلقي وهو يتحدث عن تاريخ هذه المدينة المجيد وعن حاضرها المؤلم ، ولعل من أروع الصور الشعرية التي وظفها الشاعر في تحقيق هدفه هي قوله :

بغداد تاريخك الماضي يحدثنا   بأَنَّ خدَّكِ جبّار وإنْ سُحِقَا(٢)

فعبارة (خدك جبار) تحمل بين طياتها إشارة إلى شموخ بغداد وعزتها وكرامتها ، فمهما تعرضت للحوادث والنكبات على مدى تاريخها الطويل إلا انها تبقى عزيزة ويأبى خدها أن يسحقا . لقد استطاعت هذه الصورة التي اعتمدت الاستعارة أن تخلق في نفس المتلقي بُعدا جماليا مؤثرا يثير في النفس الاعجاب وهذا هو سر نجاح الشعر وديمومته وخلوده .

. بغداد حكامها واهلها :.

وعلى العكس من ذلك ؛ فما ان يتعرض الشاعر إلى الضيق أو إلى اليأس من تحقيق آماله وطموحاته الكبيرة أو الصغيرة حتى نراه يتوجه باللوم أو العتاب وحتى الهجاء ، لكن لا لهذه المدينة العريقة ، وإنما يتوجه بالخطاب إلى حكامها الذين أساءوا حكمها أو إلى أهلها الذين لم ينصفوا الشاعر ؛ فنرى تحولا بالخطاب من بغداد إلى حكامها واهلها . فهذا الجواهري ينظم قصيدة في هجاء رهط من الحاكمين يساندهم نفر من طلاب مجد كاذب وزعامات مزيفة . على حد قوله . كانوا قد تألبوا على الشاعر ، فقال فيهم :

عدا عليَّ كما يستكلبُ الذيبُ   خلقٌ ببغدادَ أنماطٌ أعاجيبُ
خلقٌ ببغدادَ منفوخٌ ، ومطّرحٌ   والطبلُ للناس منفوخٌ ومطلوبُ
خلق ببغدادَ ممسوخٌ يفيضُ به   تاريخُ بغدادَ لاغربٌ وَلا نُوبُ(٣)

فنلحظ كيف ان الشاعر يتألم على بغداد أن يكون فيها (خلق) من انماط أعاجيب ، فهم كالطبول المنفوخة من الظاهر الفارغة من الباطن ، بل انهم (خلق) ممسوخ أفاض به تاريخ بغداد والشاعر في كل

---

(١) ديوان الوائلي / ١٨١. الصل : الحيّة ، العنت : المكابرة والعناد والخطأ والفجور والوقوع في الأمر الشاق ، البضع : القطع ، البرذون : ما كان غير أصيل من الخيل والبغال ، أكبرت وعيك : ارى انه أعظم قدرا .

(٢) م . ن / ١٨١.

(٣) ديوان الجواهري / ج٤: ٦٤٩.

ذلك انما يحاول ان يظهر ألمه لما حلَّ بهذه المدينة فنراه يكرر لفظة (خلقُ بغداد) في كل بيت من هذه الابيات الثلاث ، على حين ضم البيت الاخير لفظة (بغداد) مرتين ، والى جانب طبقة الحكام هناك الاحرار الصابرون داخل السجون وهؤلاء الذين يجب أن تناط بهم مهمة قيادة الشعوب لانهم مؤهلين لها، وهناك قسم آخر من ناس بغداد وهم عبيد صاغرون وآخرين موالين للنظام الحاكم من البرجوازيين والانتهازيين :

إنـي لأعذِرُ أحراراً إذا برِموا بالحرِّ يلويـه ترغيبٌ وترهيبُ
والصابرين على البلوى إذا عصفوا بالصَّابر الشَّـهم آدَتـه المطاليبُ
والخابطينَ بِظلماءٍ كأنَّـهُمُ بغلُ الطواحين يَجري وهو معصوبُ
فما لِعُبدانِ أهواءٍ وعندهمُ فـي كلِّ يومٍ من التغريرِ أُسلوبُ(١)

فالشاعر هنا إنما هو يرفض ((الواقع الشاذ ، حيث الحكام يمثلون الارادة السالبة ، وهم في شعره غير صادقين ولا امناء على مصالح الأمة ، فهم بالتالي أوغاد يجب مقارعتهم بعنف وسخرية قصد إسقاطهم ، حتى تستقيم الحياة))(٢) .

وفي موضع آخر نرى الشاعر نفسه يشير إلى معاناته وعذابه من (حاكم بغداد) إلا ان هذا العذاب لم يكن بأمر الحاكم وإنما كان بأمر أجنبي مُطاع :

لزَّني في العذاب حاكمُ (بغدا دَ) بأمرٍ من أجنبّيٍ مُطاع(٣)

وكأنه بذلك يشير إلى ان بغداد لا يمكن أن تخضع لحكم أجنبي ، وأن تطيع هذا الحكم وترضى به ، أما حكامها فالبعض منهم يمكن أن يخضعوا .

وإذا ماتركنا حكام بغداد وانتقلنا إلى أهلها فاننا نلحظ ان بعض شعرائها يصفونهم بانهم قد بدلوا صدق الكلام بزوره ، ومن هنا فان الشاعر يتوجه بالدعاء عليهم للباري عزوجل ويطلب منه أن لا تغفر ذنوبهم ؛ ذلك انهم زرعوا الشر وسوف يحصدوه مستقبلا :

أهل بغداد بدّلوا الصدق زورا ربِّ لا كان ذنـبهم مغفورا

---

(١) ديوان الجواهري / ج٤: ٦٤٩- ٦٥٠. عبدان : جمع عبد .
(٢) ازمة المواطنة في شعر الجواهري دراسة تحليلية في ضوء المنهج التكاملي / فرحان اليحيى ، اتحاد الكتّاب العرب ٢٠٠١م . ص: ٢٢٧.
(٣) ديوان الجواهري / ج٤: ٦٧٧.

زرعوا الشرور فيها بذورا   أيها الزارعون فيها شرورا
سوف لا تحمدون يوم الحصاد[١]

ويبدو ان للظروف الاجتماعية والأحوال السياسية التي كان يعيش فيها البلد كان لها الأثر الكبير في نفسية الشاعر إذ جعلتها متوترة ، مشحونة بالألم والغضب على أهل بغداد ، ذلك ان احساس الشاعر بتغير الحياة فيها وانها اصبحت ليست كما كان يعهدها في السابق ؛ إذ تحول أهلها إلى حب المال والبحث عن المصالح الشخصية فضلا عن الن القوي فيها يفترس الضعيف وكأن الناس فيها تحولوا إلى ذؤبان وحملان ، وهذا ما يشير إليه أحد شعرائها مخاطبا نفسه :

اليوم يا نفس لا بغداد منك كما   كانت ولا أهل بغداد كما كانوا
الناس للمال في بغداد قد عبدوا   كأنَّما المال في بغداد أوثان
يبغي القوي افتراسا للضعيف بها   وهكذا الناس ذؤبان وحملان[٢]

فالشاعر هنا يصف حال أهل بغداد . من وجهة نظره . وما آلت إليه أحوالهم ، لذا نجد ان حزنه أخذ يزداد على هذه الأرض ؛ فيطلب من الباري أن يبدل قربها منه بالبعاد عنها ؛ فلقد زهدتها نفسه ، وملَّ منها فؤاده ، كما سئم الحياة فيها :

ان حزني في ارض بغداد بادي   كل يومٍ في شدَّة وازديادِ
ربِّ أبدل لي قربها بالبعادِ   طال في بغداد فمضَّ اضطهادي
فقلتها نفسي وملَّ فؤادي
أنا من بغداد وبغداد مني   مبديا ضجرة ومنها التجني
ولقد ساءت بالعواقب ظني   نجني ربِّ نجني ربِّ اني
قد سئمت الحياة في بغداد[٣]

ويبدو ان الباري عزوجل استجاب دعاءه ، فقرر الرحيل عن بغداد رحلة عائف ؛ لما عاناه فيها من ظلم واضطهاد ،فعالِمها لا يُجازى بغير الجحود ، وان الناس فيه ينقسمون إلى عالِمٍ راشد بعلمه وآخر جاهل غير رشيد ؛ وكأنه بذلك يشير إلى اعدائه الذين سببوا له الأذى فقرر الرحيل عنهم وعن بغداد :

---

[١] ديوان جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣هـ ـ ١٩٣٦م) / بقلم عبد الرزاق الهلالي ؛ بيروت : دار العودة ١٩٧٢م . ص: ٢٠٦.
[٢] م . ن : ٣٧٤.
[٣] ديوان جميل صدقي الزهاوي : ٢٠٦.

سأرحل عن بغداد رحلة عائفٍ فقد طال في دار الهوان قعودي
ولم أرَ في عمري كبغداد منزلا به العلم لايُجزى بغير جحودِ
ببغدادَ ناسٌ راشدون بعلمهم وقومٌ من الجهالِ غير رشيد(١)

وفي موضع ثالث نجد ان الشاعر نفسه يشير إلى ان اعداءه في بغداد قد وجهوا حرابهم إلى صدره؛ وهذا ما جعل من عيشه فيها عذاب ، لذا فقد قرر أن يجعل بغداد خلفه وان يرحل عنها :

سأرحل جاعلا بغداد خلفي فما عيشي بها إلا عذاب
وما زلت من الأعداء فيها موجهة إلى صدري الحراب(٢)

فبغداد في عين الشاعر كانت وطنه الذي يحمل ذكرياته ، وهي دار السلامة ، وموضع أمانيه التي يغدو ويروح من أجل تحقيقها حتى تغيّر أهلها واشاحوا بوجوههم عنه :

بغداد لي وطن إذا استذكرته مرت على عيني له ألواح
بغداد لم تك غير دار سلامة حتى تغيَّر أهلها واشاحوا
في كل يوم كان لي من ارضها مغدى إلى امنية ومراح(٣)

غير ان السعادة التي كان يعيش فيها قد ذهبت وانقضت واصبحت حلما من الاحلام ، فلم تعد (بغداد) كما كانت دار سلامة وحب ووئام كسابق عهدها ، ويبدو ان للظروف العصيبة التي عاشها الشعراء أو حتى المثقفون أو عامة الناس . بشكل عام . يجعلهم يصبون باللائمة على المكان الذي لم يحقق طموحاتهم ؛ حتى كأن بغداد هي المسؤلة عمَّا يفعل أهلها وحكامها :

بغداد ليس اليوم دار سلامة كلا ولا هي منزل لوئام
أما السعادة لي بها وقد انقضت فكأنَّها حلم من الاحلام(٤)

كما نلحظ أيضا ان اهتمام الشعراء ببغداد وما يجري فيها من أحداث سياسية وصراعات بين الطبقة الحاكمة والشعب كون بغداد تمثل ((الواجهة السياسية والثقافية للبلاد ، ومنها انطلقت حضارات الرافدين

---

(١) ديوان جميل صدقي الزهاوي : ٢١٨.
(٢) م . ن : ٢٢٢.
(٣) م . ن : ٣٩٧.
(٤) ديوان جميل صدقي الزهاوي : ٣٦١.

وتفجرت الثورات ، لهذا يجب أن تسود فيها الحرية))(١) ولاسيما حرية الفكر ، الاّ انها وللاسف نتيجة السياسات القمع التي يستخدمها الحكام ضد الحريات نجد أن معناها أصبح نكبة وقيود .

فلا تنشدوا حريـة الفكر انـها ببغدادَ معنى نكبة وصفادِ
فما كان بشار بـأول ذاهبٍ ضحية جهل شائـن وعَمادِ
الى اليوم في بغداد خنقُ صراحةٍ وتعذيبُ لاف لاجل آحـادِ(٢)

ومن هنا نجد ان الخطاب يتوجه الى (بغداد) وكأنها هي السبب عن آلام الشاعر ومعاناته أو هي المسؤولة عمّا يفعله حكامها ، فيقع الشاعر في توتر فكري وعاطفي وذلك ((بسبب الهوة العميقة بين التاريخي والآني ، فها هو ينشد الحرية في بغداد الحاضر فلا يجدها ، في حين ان هذه المدينة كانت حاضرة العلم والادب بلا منازع))(٣) وهذا مانلحظه في قول الشاعر :

كم ببـغدادَ الاعيبٌ واساطيرٌ اعاجيب
وأساطينٌ إذا امتحنوا فمـهازيلٌ مناخيـب
خزيت بغدادَ من بلدٍ كل شيء فيـه مقلوب
خَزيتْ بغدادُ تعرُكُـها من ضِبـاع جوَّعٌ نيبُ
كذب التاريخ لا عَربٌ إنـهم لابُدَّ تعريـب
كم ببغدادَ الآعيبٌ وأضاحيك أخاشيـب
خزيت بغدادَ حنَّكها فـي المذلات التجاريب
خزيت بغداد ليس بها مثل هذا الفحل يعسوب؟
خزيت بغداد ليس لـها حاضر كماضيها خصيب(٤)

فنلحظ في هذه الأبيات كيف ان الشاعر يكرر لفظة (خزيت بغداد) من اجل ابراز التوتر العاطفي والفكري ؛ فضلا عن التركيز على مواطن مهمة لدى الشاعر وهي المقارنة بين ماضي هذه المدينة العريق والخصيب وبين حاضرها المليء بالآعيب والأعاجيب .

---

(١) : ازمة المواطنة في شعر الجواهري / ١٧٦.
(٢) : ديوان الجواهري / ج١: ١٩٦
(٣) : ازمة المواطنة في شعر الجواهري / ٣١٨.
(٤) ديوان الجواهري : ج٧/ ١١٠٥-١١٠٧. حنكها : جعلها ضالعة في المخازي والمذلات .

هذا وإذا كان الشعر هو المحرك الأساس لاستنهاض الشعوب إلى العُلا بما يمتلكه من قدرات فائقة على شحذ الهمم وبث العزيمة في النفس ، وبعث روح الاستعداد لمواجهة الأعداء والتحديات التي يمر بها المجتمع ، فانه في بغداد قد تحول إلى بضاعة كاسدة ، وسوقه فيها غير رائج ؛ وهذا إن دلَّ على شيء فانما يدل على الخمول الذي اصاب هذه المدينة والتقاعس عن المطالبة بالحقوق ، وبذلك فقد الشعراء صوتهم الفاعل وضاعوا في بغداد :

الشعر في بغداد ليس برائجٍ   يا ضيعة الشعراء في بغداد
الشعر ينهض بالشعوب إلى العلى   فيما يولده من استعداد(١)

ذلك ان دار السلام (بغداد) قد تحولت إلى دار كربة يتساوى الهمّ فيها ليلا ونهارا :

لقد سرت من بغداد يدفعني الوجد   إلى حيث وكر الشعر طائره سعد
ولم تكُ بغداد سوى دار كربة   نهاري فيها مثل ليلي مسوَّد(٢)

ويبدو ان هذه المآسي والآلام التي احاطت بالشعراء وجعلتهم يتوجهون إلى دار الغربة كان السبب فيها طبيعة النظام الحاكم لها ، الذي عمل على تشويه وجه بغداد الحضاري ؛ وهنا يقع الشاعر في توتر واضطراب بين ماضٍ يعج بالبطولات والمجاد ، وحاضر يعاني من الخراب وفقدان الحرية والأمان . لهذا نرى من الشعراء مَنْ وقف في شعره على رسم صورة متناقضة بين ماضٍ عرفه وحاضر يعيشه ، وهذا إنما يعكس حالة الاضطراب والحيرة التي وقع فيها الشاعر ؛ بين تاريخ قرأه وسمع به وعرفه ؛ وبين حاضر يعيشه ويعاني من ألمه وقسوته ، فبغداد لم تعد كسابق عهدها فقد شوه وجهها النظام الحاكم، ليس فقط في نهارها بل شمل أيضا حتى ليلها لم يسلم من فقدان الأمن فيه فلا يستطيع المرء أن يمشي فيه بلا خفر :

بغداد ليست كما قد كنت تعرفها   فيما انقضى عهده من سابق العصر
عرج ببغداد تعرف مثل معرفتي   فما عيان امرئ للشيء كالخبر
العيش للحرِّ في بغداد معتكر   وليس في غير بغداد بمعتكر
في ليل بغداد من فقد الأمان به   لا يستطيع امرؤ يمشي بلا خفر(١)

---

(١) ديوان جميل صدقي الزهاوي : ٢٥٣.
(٢) م . ن : ٣٧٧.
(١) ديوان جميل صدقي الزهاوي : ٢٢٣.

والشاعر إنما يذكر بغداد ويخصها بالحديث كونها تمثل مركزا للحضارة ومصنعا للقرار السياسي(٢)، وان هذه الأحداث التي تمر بها إنما تعمل على تشويه وجهها الحضاري ، وتفقد بذلك موقعها الحضاري الذي يميزها من باقي عواصم الدول الأخرى .

ولكن على الرغم من هذا ((التشويه لحاضر بغداد ، لم تحجب رؤية الشاعر لماضيها المجيد أيام كانت عاصمة للآداب والفنون))(٣) لذا نجد الشاعر يتساءل عن عودة أيام بغداد إلى ما كانت عليه من اشراق وازدهار ؛ حتى كأن الأيام القاسية فيها قد خرجت عن أحضان بغداد ، ويأمل في عودة الأيام الجميلة فيها إلى ما كانت عليه ، حيث يقول :

أتعود بعد تصرم ونفاد   ايام بغداد إلى بغداد
أيام بغداد التي في مرها   كانت عوادي الدهر غير عوادي
إذ ليس بغداد كما تلقى ولا   حكام بغداد ذوي استبداد(٤)

وفي موضع ثان يقول :

فقد تعيد إلى بغداد ما فقدتْ   من دولة العلم والعرفان والأدب(٥)

مؤكدا بذلك موقع بغداد وسيادتها على مواطن العلم والعرفان والأدب ؛ كيف لا ! وبغداد هي أم الدنيا في ماضيها وحاضرها التليد ، وهذا ما نلحظه في قول الشاعر وهو يتغنى بمجد بغداد :

يا أم بغداد من ظرفٍ ومن غنجٍ   مشى التبغدد حتى في الدهاقين
يا أم تلك التي من ألف ليلتها   للآن يعبق عطرٌ في التلاحين
يا مُستَجمَ النُّواسيِّ الذي لبست   به الحضارة ثوبا وشي هارون
والمسمَعَ الدهر والدنيا وساكنها   قرع النواقيس في عيد الشعانين(١)

أما أهلها ففيهم الكرام الذين يداومون على العهد والموالاة فيما بينهم ، وفيهم أيضا الأعادي الذين يتمادون في الخصام ، ولكنها على الرغم من كل ذلك تبقى أرض هوى وموطن سلام ، فعلى الرغم من

---

(٢) يُنظر أزمة المواطنة في شعر الجواهري : ٢٩٣.
(٣) م . ن : ٢٩٣.
(٤) ديوان جميل صدقي الزهاوي : ٣٠١.
(٥) م . ن : ٢٨٥.
(١) ديوان الجواهري : ج ٥/ ٧٧٤.   التبغدد: مشى بزهو ، غنج : تصَّنع ، دليل الاحساس بالجمال والترف ، الدهاقين : رؤساء القرى والمدن ، عيد الشعانين : من أعياد النصارى .

مبارحة الوطن إلا ان حبه يظل في قلب مواطنيها يحملونه بين أضلعهم رمزا للحب والسلام ، لذا نجد من الشعراء مَنْ يعبر عن هذا الحب وهو بعيد عن الوطن من خلال إلقاء التحية والسلام على بلده على الرغم من نأيه عنه ، مشبها هذا الحب وتلك العلاقة بعلاقة الأم بطفلها الذي تبعده عنها لا لشيء إلا لانه قد وصل إلى مرحلة (الفطام) :

بغداد فيها كرام   على الموالاة داموا
كما هناك أعادٍ   منهم تمادى الخصام
يا موطنا عنه أنأى   مني عليك السلام
لأنت أرض هوىً لي   قد تمَّ فيها الفطام(٢)

. بغداد الأم والحبيبة : -

وبغداد على الرغم من كل ما عاناه الشعراء والناس فيها بوجه عام منذ تاريخها وإلى عصرها الراهن تبقى في العيون بمثابة الأم الحنون التي تغدق بعطفها وحبها على ابنائها على الرغم مما قد تظهره من قسوة في بعض الأحيان ؛ إلا انه ما ان يمر ذكر بغداد أو اسمها حتى يعود الحنين والشوق إلى أحضانها ، فالعلاقة التي تربط ابناء هذه المدينة مع بعضهم البعض هي علاقة الأخوَّة التي قد يظهر فيها نوع من الخلاف والتباين في الآراء إلاّ انهم يجتمعون تحت خيمة واحدة وحضن واحد وهو حضن الأم :

تلقيت في بغداد من عصبة قلى   وقاسيت في بغداد من ثلة ضغنا
لقد طال فيما بيننا الطعن موجعا   فدنا كما دانوا ودانوا كما دنا
وكنت أرى بغداد مما لقيته   ببغداد من كرب شقيت به وسجنا
على ان في بغداد لي من شبابها   إذا ضقت أنصارا من حولهم حصنا
هل أنا إلا ابن لبغداد نازح   إذا ذكروا بغداد يوما له حنَّا(١)

كيف لا يكون هذا الحب الكبير لها ؟ وهذا العشق ؟ وهي الموطن الذي يستقى منه الآداب والمعارف والخلاق والقيم النبيلة الصافية ، لهذا كانت مهد الحضارات ، ومنبع القيم الانسانية وكانت الأم التي تغذي

---

(٢) ديوان جميل صدقي الزهاوي : ٣٥٧.
(١) ديوان جميل صدقي الزهاوي: ٣٥٩.

ابناءها على هذه القيم وعليها ينشأون ، لهذا نجد الشعراء يفخرون بانتمائهم إلى هذه الأم؛ وعن آدابها وعلومها كان غذاءهم ورضاعهم ، وهذا ما يذكره أحد شعرائها :

واني امرؤ بـغداد أول بقـعة　　　رضعت بها الآداب أصفى من الندى
وما كنت في يومٍ عن الحقِّ ساكتا　　　ولا فيه عن نصر الحقيقة معددا(٢)

وقد تأخذ بغداد في عيون محبيها صورة المحبوبة التي يزينها شعر شعرائها بما يصفوه من أمجادها وحضارتها فيكون هذا الشعر بمثابة العقد الذي تزين به جيدها بما تناسق فيه من لؤلؤ ودرّ نظمه الشاعر في ذكر اوصافها وجمالها :

إليكِ الشعرَ يا بغدادُ عقدا　　　تناسق لؤلؤٌ فيه ودُرُّ (٣)

فاليها لا لغيرها يُهدى الشعر ويُبعث الهوى عرضا وطولا ، وتذرف دموع الشوق والصبابة :

خذي نفس الصبا بغداد إنِّي　　　بعثتُ لكِ الهوى عَرضا وَطولا
أ بغداد اذكري كم من دموع　　　أزارتك الصبابة والـغليـلا(٤)

أما سحرها فقد تغنى به الكثيرون لرقته ولعذوبته :

بأسحار بغداد تغنّى عوالم　　　وذكرك من أسحارَ بغداد أعذبُ(٥)

ولم يقف الشعراء عند سحر بغداد فحسب وإنما وقفوا عند ليلها وما يبثُّ فيه من ذكرى ليالي الف ليلة وليلة حيث شهرزاد وحكاياها عن المهدي وعشقه للخيزران ، وعن إبي نواس وعشقه لجَنان ، وعن حكايا سمير أميس وما إلى ذلك من سحر هذا الليل الذي ضمَّ عشق جميع المحبين ، كيف لا؟! وليل بغداد ينحط عنه الدهر شانا ، وهذا ما تحدث به الشاعر مصطفى جمال الدين عندما نظم قصيدته (بغداد في الليل) التي تقع في حدود (٣٨) بيتا مطلعها :

حَدِّثي بغدادُ عن ذِكْرى هَوانا　　　كُلَّما ضَمَّتْ شواطِيْكِ الحِسانا
حَدثيهنَّ وقولي : إنَّـها　　　ليلةٌ حَمْرَاءُ....فاضَتْ أُرجُوانا

---

[٢] م . ن : ٣٧٢.
[٣] ديوان الجواهري : ج١/ ١٧٦.
[٤] م . ن : ج١/ ١٤٢.
[٥] م . ن : ج٥/ ٧٥٠.

حَدِّثي فَالحبُّ أشهر ما يَرَى   أَنْ تَقولِي : هـٰهنا كانت ..وَكانا[1]

وفيها يقول :

حدثي بغدادُ عن لَيْلي إذا   ضاقَ بالغِيْدِ النُّوَاسيُّ مكانا
وإذا ألهَبَ أهلِيهِ الهوى   فاستحالَ السَّمَرُ الحُلُو دُخانا
ليلةٌ خيرٌ من الألفِي التي   أغْفَلَتْ عَن شهرَزادَ السبفَ آنا
لَمْ يَكُ المَهديُّ من فِتيانها   غيرَ صَبٍّ يَتَرضّى الخَيْزُرانا
وابنُ هاني سَادِرٌ في غِيدِها   لَمْ تكنْ بُغيتُهُ إلاَّ جِنانا[2]

ومنها أيضا قوله :

حَدِّثي بغدادُ عَن لَيْلِ إذا   بَهَرَ الصّبحُ فَمَ الدُّنيا وَزانا
حدِّثِيهم عن سَميراميسَ   فَجَر الحبُّ بِها نَبْعَ هَوَانا
إيه بغدادُ وَحسبي أَنَّها   ليلةٌ يَنْحطُّ عنها الدّهرُ شانا
كلُّ ما فيها بَقايَا سامِرٍ   وُلِدَ النّجمُ عليه وَتَفانا
وعَبيرٌ في حَنايَا المَرجِ من   أثَرِ الغِيْد طعمُ شَذانا[3]

فقد استطاع الشاعر أن يختزل الأزمنة ويختصر التاريخ في زمن قصير جدا هو ليل هذه المدينة العريقة التي استطاعت أن تضم كل هذه الأحداث والحكايات والصور ، وان تتجسد في خيال الشاعر وهو يتحدث عن (بغداد في الليل) .

كما قد تأخذ بغداد صورة ثالثة إلى جانب صورة الأم والحبيبة هي صورة العاذلة واللائمة التي تقف بوجه طموحات صاحبها ورغباته ، كما في قول الشاعر :

خلِّ الملامة في بغدادَ عاذلتي   علامَ في شمِّ روح الخلد تلحيني[1]

---

[1] ديوان مصطفى جمال الدين : ٣٨١.
[2] م . ن : ٣٨٢. النواسي : شارع أبي نواس على نهر دجلة ن الخيزران : جارية تزوجها المهدي العباسي فولدت له هارون الرشيد ، جنان : صاحبة الحسن بن هاني (أبو نواس)
[3] م . ن : ٣٨٣- ٣٨٥.
[1] ديوان الجواهري : ج١/ ١١٦.

ونظرا لان القصائد التي قيلت عن بغداد أكثر من أن تُحصى وان يلم بها هذا البحث الصغير ، فاننا سنقف هنا لنلحظ من خلال ما تقدم ان بغداد لم تقف في أعين الشعراء عند حدود المكان حسب ؛ وإنما تحولت في مخيلتهم شخصية لها حضورها المتميز في قصائدهم ، فهي قد تحولت عندهم إلى رمز شعري وليس مجرد مكان . هذا الرمز يحمل الكثير من المعاني والدلالات التي تعبر عن نفسية الشاعر ولاسيما عندما تتعرض بغداد لمحن واحداث تاريخية صعبة ؛ فاننا نجد ان هناك تشابها في أحداثها ، وقد استطاع الشاعر العراقي أن يدرك ذلك فكان ان استلهم ماضي هذه المدينة لربطه بحاضرها وكأنه ينطلق من المقولة (التاريخ يُعيد نفسه) فكما تعرضت بغداد قديما للمحن كذلك تتعرض في الوقت الحاضر. هذا من جانب ، ومن جانب آخر نلحظ كيف تفاعل الشاعر مع هذه المدينة من خلال جعلها في صورة الأم الحانية على اولادها اتي مهما فعلت فمحبتها ومكانتها في قلوب اولادها تبقى كما هي ، وكذلك صورة الحسناء الجميلة التي يزين جيدها أقوال محبيها ولاسيما الشعراء ، وفي مقابل ذلك عندما لا تلبي هذه المدينة حاجة أهلها نراهم ينقلبون عليها فيصفوها بصفات غير حميدة ، محاولين الصاق التهم بها من خلال الوقوف عند النواقص ، وما لبغداد سبب في ذلك إلا انها لم تكن بمستوى مطمح الشاعر ومطمعه فنراه ينقلب عليها ذاما وهاجيا ومتحاملا ومفضلا الرحيل عنها وعدم العودة إليها .

قائمة المصادر والمراجع :

. ازمة المواطنة في شعر الجواهري دراسة تحليلية في ضوء المنهج التكاملي / فرحان اليحيى ، اتحاد الكتَّاب العرب ٢٠٠١م.

. بغداد بعض الغريب والطريف من ماضيها الظريف / أحمد الجزراوي ؛ مراجعة وتقديم عبد الرزاق بيمار . بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. ط١: ٢٠٠٥.

. بغداديات تصوير للحياة الاجتماعية والعادات البغدادية خلال مائة عام / تأليف عزيز جاسم الحجية. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة. ط١ (٧) أجزاء .

. تاريخ مدينة السلام واخبار محدثيها وذكر قُطَّانِها العلماء من غير اهلها ووارديها / تأليف الامام الحافظ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ٣٩٢- ٤٦٣هـ ، حققه وضبط نصه ، وعَلَّق عليه الدكتور بشار عواد معروف. بيروت : دار الغرب الاسلامي ، ط١ : ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م في (١٧) جزءا.

. ديوان ابن الرومي ابي الحسن علي بن العباس بن جريج ؛ تحقيق د. حسين نصار ، مطبعة دار الكتب العلمية ١٩٧٤.

. ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ ولد سنة ١٣٦هـ وقيل ١٤٠هـ وتوفي سنة ١٩٥هـ وقيل ١٩٦هـ وقيل ١٩٧هـ ؛ حققه وضبطه وشرحه احمد عبد المجيد الغزالي. بيروت : دار الكتاب العربي ١٤٠٤- ١٩٨٤م.

. ديوان الاثري (محمد بهجة الاثري) / د. عدنان الخطيب. بغداد: مطبوعات المجمع العلمي العراقي ،ط١: ١٩٩٠م.

. ديوان جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣هـ . ١٩٣٦م) / بقلم عبد الرزاق الهلالي ؛ بيروت : دار العودة ١٩٧٢م.

. ديوان الجواهري ، محمد مهدي الجواهري ، لجنة في وزارة الاعلام ؛ بغداد : دار الحرية للطباعة والنشر الطبعة الثانية : ٢٠٠٨

. ديوان الطغرائي أبي اسماعيل الحسين بن علي المتوفى سنة ٥١٥هـ ؛ تحقيق الدكتور علي جواد الطاهر والدكتور يحيى الجبوري الجمهورية العراقية – منشورات وزارة الاعلام ١٩٧٦م.

. ديوان مصطفى جمال الدين . بيروت : دار المؤرخ العربي ١٤١٥- ١٩٩٥م

. ديوان الوائلي . شرح / سمير شيخ الارض ط١ : ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م لبنان: مؤسسة البلاغ.

. شعراء عباسيون / غوستاف فون غرنباوم ، ترجمها واعاد تحقيقها الدكتور محمد يوسف نجم ، راجعها الدكتور احسان عباس ، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٥٩م

. الشعر والشعراء / ابن قتيبة ؛ مطبعة بريل ، ليدن المحروسة ١٩٠٢.

. طبقات الشعراء / لابن المعتز ؛ تحقيق عبد الستار أحمد فراج. مصر : دار المعارف ط٤

. معجم البلدان / للشيخ الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي. بيروت: دار صادر ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.